دعوة إلى أدب صادق للمأساة ...

بقلم غالب هلسا

الملاحظ أن مأساة فلسطين لم تنتج أدبا عظيما يرقى الى مستوى المأساة حتى بالقياس الى الموضوعات الاخرى التي تناولها الادب العربي الحديث . هذه حقيقة غريبة وتحتاج الى تفسير .

بما اننا لا نجد الا صدى خافتا لهذه المأساة في الفولكلور الشعبي بالوانه المختلفة . فالاحساس العام الذي ترينه الفاجعة في بلد كالاردن ، مثلا ، في الوجدان الشعبي ، كان في بدايته اتجاها نحو خلق البطولات الاسطورية . (كالمسدس الذي أهداه الملك الى أحد المحاربين ويستطيع اذا صوبه من أريحا أن يصيب رأس شاريت في تل ابيب) . ولكن هذا الاتجاه توقف وأعقبه احساس ان ما حدث في فلسطين هو نوع من العقاب الالهي ، يرافق ذلك شعور يمكن وصفه باللامبالاة المأساوية .

واذا حاولنا أن نقارن ذلك بما أعقب مأساة الحرب الاهلية الاسبانية ، تبين لنا الفارق الكبير . فهذه الحرب ادت الى انتاج ادب عظيم في العالم الغربي كله ، كما اعطت بعد الفترة احد ملامحها النفسية والسياسية التي لا يمكن فهم التاريخ الاوروبي الحديث بدونها .

فكيف نفسر القصور الذي أعقب فاجعة فلسطين ؟

اننا نعود الى بداية المأساة . عندما اندفعت الجيوش العربية معلنة العزم على تطهير فلسطين من العصابات الصهيونية . لقد قيل انذاك انها ليست حربا حقيقية ، وانما عملية سريعة ، تكاد تكون نزهة ثم ينزاح الكابوس الصهيوني .

ليس هذا بالمجال الذي نناقش فيه التطورات المؤسفه التي تلت ذلك ، ولكن المهم ان اهالي فلسطين صدقوا الاذدوبة ، وأغلقوا بيوتهم ، وغادروا أوطانهم بانتظار عودة قريبة . وقد شارك الارهاب الصهيوني في عملية التهجير السريع بأعمال الوحشية والعنف التي ارتكبها .

منذ تلك اللحظة نشأ وضع ما زال — بشكل عام — قائما حتى الان . ان أهالي فلسطين قد أودعوا قضيتهم في أيدي الجيوش العربية ، وبالتالي ، في ايدي الحكومات العربية وخرجت نهائيا من أيدي اصحابها الحقيقيين .

وما يزال الافتراض قائما حتى الان ان الحكومات العربية تسعى لحل مشكلة فلسطين باعادة اهاليها الى ديارهم . اما مدى المشاركة الشعبية العربية في القتال فقد كان ضئيلا ، اذ اقتصرت على اعمال شبه انتحارية قام بها بعض المثقفين . كما كان هنالك مشاركة اخرى لا يجدر بنا ان نمتنع عن ذكرها . اما بالنسبة للوضع العام فقد استعملت الحرب الفلسطينية لكبت الحريات ، ومصادرة جميع اشكال الاحتجاج الشعبي ، حتى ان بعض الدول العربيه لم تقرر الاشتراك في الحرب الفلسطينية الا في آخر لحظه لضرورات الامن الداخلي ، اي لاستعمال جو الحرب لقمع الحريه ولتقويه مركز الفئات الحاكمة .

واصبح الموقف العملي السائد نحو اللاجئين هو ان هنالك ايديا امينة تسعى لحل قضيتهم وان عليهم ألا يثيروا اية متاعب . كما يوجه اليهم النصح — العنيف أحيانا — باستمرار انهم كلما ابتعدوا عن التدخل فيما لا يعنيهم — وما لا يعنيهم هنا هو قضيتهم هم — اصبحت الامور اقل تعقيدا واصبح الحل اقرب متناولا .

بل اننا نشاهد حقيقة أشد غرابة وهي ان توزيع اللاجئين في مختلف مناطق فلسطين العربيه وفي البلدان العربيه المجاورة يشير الى انه لا يعترف بأن هنالك قضية واحدة تجمعهم . كما انه — فيما عدا بعض الاستثناءات — يحرم عليهم أي شكل من أشكال التنظيم السياسي والعسكري الذي يجعلهم قادرين على ان يباشروا حل قضيتهم بأنفسهم .

واذا حاولنا ان نحلل الايديولوجية التي يعبر عنها الادب الذي كتب عن قضية فلسطين لوجدنا انه يحمل سمات الموقف الرسمي نفسها . ان نظره هذا الادب نحو قضية الشعب العربي الفلسطيني هي نظرته لقضية تتجه نحو الحل ولا يعبر باية حال عن التجربة الحية التي عاشها المشرد الذي طرد من ارضه ووضع داخل معسكرات الموت الرهيبة . واذا اردنا ان نقدم مثالا واحدا يعبر عن هذه الايديولوجية لقلنا ان هذا الادب لا يعتبر عارنا الاكبر هذه الحياة الفظيعة واللاانسانية التي يعيشها اللاجىء في أوضاع تسحق انسانيته ، ولكنه يعتبر العار الاكبر انهزام الجيوش العربية في فلسطين عام ١٩٤٨ ، هذه الجيوش التي دخلت لتنهزم عن وعي وتصميم .

وكما تصلبت النظرة الرسمية — في الغالب — بالنسبة لنظرتها الى هذه القضية ولاسلوب علاجها ، اصبحت كذلك — في هذا الادب الذي كتب عن المأساة — اصبحت كل ملامح اللاجىء تقليدية وثابتة : انه فقير وقد كان غنيا ، يحن للحدائق الغناء ، وبيارات البرتقال التي كان يملكها ، تذكره اصوات العصافير باختلاف انواعها ببلده ، كانت له قصة حب فقتلت حبيبته ، كما يتحرق شوقا الى الفداء والتضحية . يضاف الى ذلك بعض الرتوش التي أصبحت معادة ومكرورة .

وهي صورة تذكرنا بالروس البيض الذين غادروا

حياتهم الصاخبة وضياعهم بعد ثورة اكتوبر ، وليس لها اية علاقة بحقيقة اللاجيء الذي يسكن في معسكرات الجذام ويعيش على الاحسان المشبوه .

وربما كان أغرب ملامح هذا الادب تلخيص اللاجيء في قضية بالغة البساطة والسذاجة وهي انه باحث عن الثأر .

ان النتيجة التي توصل اليها الادباء الذين يكتبون عن قضية فلسطين لهي منطقية تماما : اننا ما دمنا قد تخطينا اللاجيء في حل قضيته ، فهو ، بالتالي ، لا يمكن ان يبدو لنا حقيقيا . انه هنا الفلسطيني وحسب ، اللاجيء ذو المشكلة المعروفة والحنين المفترض مسبقا . انه جزء من كتلة غامضة متجانسة نشكلها من بعيد ونفرض عليها قضيتها وملامحها .

قد يقول البعض ان هنالك عددا كبيرا من الادباء الفلسطينيين الذين يكتبون عن هذه القضية بل تكاد تكون كل شغلهم الشاغل . ولكن علينا ان نقول بصراحة ان معظم هؤلاء قد خرجوا من بيوتهم ليجدوا بيوتا اخرى تؤويهم ومجتمعا يقبلهم ، وانهم لم يعيشوا تجربة اللاجيء الذي يعيش في المخيمات والذي يضرب حوله سور من اللامبالاة ويدفع الى عزلة من يعيش في مستعمرات الجذام .

ان التعبير الحقيقي عن وجهة نظر اللاجيء ـ صاحب القضية بشكل اساسي ـ يجب أن تنبع من داخل مخيمات اللاجئين . تلك التي حولها بعض الادباء السذج الى مسارح رومانسية للحب على ضوء القمر والحنين الارستقراطي الى الحدائق الغناء . ولا واتيح لهذا التعبير الحقيقي ان يأخذ اطاره الفني لالتقينا في داخل هذه المخيمات ، وجها لوجه ، بهيمنغواي ، واكسوبري ، وبول ايلوار ، وبيكاسو .

عندما حدثت المجاعة في ولاية اوكلاهوما الاميركية التي سببها القحط والاجراءات الوحشية التي اتخذتها البنوك الدائنة ضد الفلاحين صدر كتاب عن هذه المجاعة هز الضمير الاميركي ، وكان أحد الاسباب التي جعلت الحكومة تتخذ اجراءات واسعة النطاق للتخفيف من حدة هذه الازمة ، إسم ذلك الكتاب « عناقيد الغضب » وقد عرف بالكتاب الذي هز العالم . كتبه شتاينبك كما ينبغي للكاتب المخلص ان يكتب ، بأن عاش مهاجرا بين المهاجرين ، مرافقا لهم من بداية مسيرتهم حتى انتهائها في كولومبيا .

وكذلك كتب هيمنغواي روايته الرائعة « لمن تدق الاجراس » بعد ان شارك مشاركة فعلية في الحرب الاهلية الاسبانية . وكذلك اكسوبري الذي عمل مراسلا حربيا هناك .

ان ادبا عظيما في مستوى مأساة فلسطين لن يكتبه اناس يمرون وسط بؤس اللاجئين كزائرين يضعون مناديلهم على انوفهم ، لانهم انما ينتجون هذا الادب الذي يعبر عن وجهة نظر طبقية اذ يعتبر قضية فلسطين قضية اصحاب الاقطاعيات . ولعله من اسهل الامور ان ينزلق الانسان الى هذا الموقف ، اذ ان اللاجيء ليس طبقة مضطهدة بالمعنى المعروف ولكنه يمثل وضعا في السلم الاجتماعي أدنى من مستوى أي طبقة ، ولذا فهو أشد ثورية من جميع الفئات .

ان اللاجئين يكونون طاقة ثورية هائلة ، تستطيع ان تعطي المنطقة العربية حيوية وتدفقا جديدا يمكنهما ان يغيرا جميع علاقات القوى السياسية في العالم العربي ، وسيكون الادب الذي يعبر عن هذه الطاقة اروع ما عرفنا من ادب لانه يمثل أكثر الطبقات ثورية ورغبة في التغيير واعنفها احتجاجا .

وكما ان قضية فلسطين هي بشكل رئيسي قضية اللاجئين ، فكذلك يجب ان يكون ادب المأساة ناقلا لوجهة نظرهم . انه لمن غير المعقول ان تكون هنالك قضية لاهالي فلسطين ولا يسمح لهم بأن يتدخلوا فيها بشكل فعال . ولن يكون للاجئين بالضرورة وجهة نظر مختلفة بما يتعلق بحل القضية ولكن التناول والتعبير عن هذه القضية سيكون مختلفا دون شك .

فاشراكهم في قضيتهم سيرفع القضية من مستوى الكلاشيهات المتحجرة والشعارات التي يستغلها الديماغوجيون لخدمة اغراضهم الخاصة ، الى مستوى العمل اليومي الذي تتحدد المواقف على أساسه .

ان تحقيق وضع كهذا سيفجر طاقات فنية رائعة ، لاننا بهذا سنتيح للانسان صاحب القضية ان يعبر عن نفسه ، ونحن بهذا لا نرفع عنه الوصاية السياسية فحسب ولكننا نرفع عنه الوصاية الايديولوجية ونوقف التعسف الذهني الضيق الذي يحجر شخصية اللاجيء وينتزع أروع أبعادها .

ان الفنان الذي يقطع صلته بالمخيمات التي يحيا فيها المليون لاجيء معرض للضياع ، ولفقدان أصالته وحرارته . وهذه ليست دعوة للادباء الفلسطينيين فقط لان يعودوا الى أرضهم الحقيقية ، وانما هي موجهة لكل فنان عربي يؤرق ضميره تشريد شعب بأكمله ، والتهديد الرهيب الذي تشكله هذه الترسانة الحربية التي خلقها الاستعمار في قلب الوطن العربي .

ستظل مخيمات اللاجئين وظروف حياتهم التعسة الخطيئة الاصلية الموروثة للندم ، ما دامت مشكلة ساكنيها لم تحل . وستظل ، ابدا ، الشاهد الرهيب على عدالة مضحكة :

ان يتعذب ويهان بشكل مستمر مليون انسان تكفيرا عن جرائم اللاسامية ، التي لم يشارك فيها هذا الشعب قط ، بل المضحك ان خالقي وموجهي جرائم اللاسامية هم الذين توصلوا الى مثل هذا الحل .

غالب هلسا

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي